هدية المقتطف

بيجماليون
في الأدب العربي

لحسن كامل الصيرفي

بيجماليون
في الادب العربي (1)

بقلم حسن كامل الصيرفي

يحب الفنان أن يعيش في الخيال اكثر من العيش في الحقيقة ، وأن يحيا في الوهم اكثر مما يحيا في الواقع ، لان الواقع يصدمه ويصدم خياله . ولذلك يخلق له من فنه وعبقريته ، عالماً يختلف عن عالم الناس بعواطفه وميوله المثالية المجرّدة عن طبيعة الحياة ، وغرائز الحياة . يخلق له هذا العالم ليفرّ اليه من الواقع ، وليستريح اليه من الحقيقة . فالمثّال يرتفع في فنه عن مثاله الاصلي ليخرج به عن حقيقته في الوجود ، والموسيقي يرتفع بأنغامه عن صوت الحياة المدوّي من حوله ، والشاعر يخلق له من مسرّات الحياة وآلامها جسراً يعبر عليه الى العالم الذي يسمو على هذه المسرّات والآلام في طبيعتها الارضية وصورها الدنيوية . وما الرمزية في الأدب إلاّ دليل على فرار الفنان من الواقع الى الخيال، ومن الحقيقة الى الظلال ليتوارى فيها من بهرة الحقائق ومن لفحة شمسها

وفي الأسطورة الإغريقية « بيجماليون » تصوير للقلق الذي يساور الفنان في حياته أمام المثل الاعلى المتجلّي له ، والذي يريد أن يرتفع اليه فتجذبه الحياة الى حقائقها وتردّه الى حظيرتها ، فيتجرع كأس الألم المرّة ، ليهب العالم بعده حلاوة إبداعه وتساميه . فان هذه الأسطورة لتروي لنا انه كان في جزيرة (قبرص) مثّال بارع ارتفع الى الذروة السامقة في فنه هو « بيجماليون » ، وان هذا المثال لما رأى تبذّل النساء في تلك الجزيرة قد بلغ حدّاً بعيداً من الانحطاط والتردّي وحمأة الخلاعة والرذيلة ، عاف الزواج ، وكره هذا النوع من الحياة ، فأراد أن يسمو عليها وان يرتفع بخياله عما يعيش فيه جسده، فاعتزل الناس الى فنه وعبقريته، يستوحيهما أخلد آثاره ، وأروع آياته ، فابتدع تمثالاً من العاج لفتاة بارعة الجمال أحبها ، ووضع في صنع تمثالها كل روحه ، وكل ما

(1) اذيعت من محطة الشرق الادنى للاذاعة العربية

تختلج به نفسه ، من مثل عليا ، فلما انتهى منه ، فُتن به وهام هاماً شديداً بلغ حدَّ الرغبة في أن تنبعث في هذا التمثال روح الحياة حتى يدبّ ويسعى أمامه ويحيا معهُ ، فابتهل الى إلهة الحب والحياة « فينوس » أن تحقق رغبته وتجيب طلبتهُ ، فأجابتهُ الإلهة الى أمنيته ، فما لبث ان وجد تمثاله العاجيّ إنسانةً حية تناديه ويناديها ، فتزوّجها ورزق منها « باخوس » مؤسس المدينة المعروفة باسمه في جزيرة قبرص

***

هذه هي الأسطورة الإغريقية التي تصوّر لنا مدى هيام الفنان بفنه ، ومدى تعلقه بالوهم والخيال، وفراره اليهما من الحقيقة والحياة . وقد عالج هذه الأسطورة في الادب الغربي الكاتب البيروفي « فنتوري غارسيا كالدرون »، وكان من حسن حظ العربية ان نقلتها اليها مجلة « المقتطف » منذ سنوات ، ثم أعادت نشرها من جديد في المجموعة القصصية التي أخرجتها باسم « موكب الحياة » وقدمتها هدية إلى قرّائها هذا العام ... كما عالجها أيضاً الكاتب الارلندي برنارد شو ، ومثلت مسرحيته على الشاشة البيضاء .

ولقد شاء كاتبان من كتّاب العربية أن يسديا يداً بيضاء الى الأدب العربي الحديث بأن يجعلا من هذه الأسطورة مادةً لمسرحيتين جيلتين يعالجان فيهما حياة الفنان داخل إطارها . وكان من حسن حظ هذه الأسطورة أن يكون رائدها في العربية هذان الكاتبان الأستاذان توفيق الحكيم وخليل هنداوي ، فإن لهما من علوّ كعبهما في الأدب وبُعد نظرهما ما يضمن لمسرحيتيهما البقاء . ولقد نشر الحكيم مسرحيته في كتاب ، أما هنداوي فقد نشرت مجلة (المقتطف) مسرحيته في عدد أغسطس سنة ١٩٤٢ ولم تنشر بعد في كتاب

وقد عالج كلٌ منهما موضوعه من ناحية ، واتجه كلٌ منهما في سبيله وجهة خاصة ، ونظر الى الأسطورة بعين غير التي نظر بها الآخر . فكيف كانت نظرة كلّ منهما ؟ ولماذا كان اختلاف وجهتهما ؟ وما مدى التفاوت في ذلك الاختلاف . ومدى ما وُفق كل منهما اليه في اتجاهه ؟ .. هذا ما أحاول بحثه في هذا الحديث

لقد وضع توفيق الحكيم مسرحيته في أربعة فصول، في حين جعلها خليل هنداوي في فصل واحد. فالأفق في مسرحية الحكيم أوسع، ولكن اتساع هذا الأفق اضطره الى خلق شخصيات متعددة، والى خلق حوادث أخرى يحيط بها فكرة المسرحية، وأن يدير فيها الحديث في موضوعات أخرى — وإن كانت تمس الحب والحياة والفن — إلا أنها كثيراً ما تطغى على جوهر الفكرة العامة في أسطورة بجماليون، واضطره إطالة الحوار بين الإلهين «أبولون» و«فينوس» أن يجعل من هذا الحوار مناقشة فيها كثير من خلق الناس لا من خلق الآلهة وطباعهم، وإن كان اليونانيون قد جعلوا لآلهتهم طبائع يشتركون فيها مع الناس... فجعل الحكيم من سخرية أبولون بفينوس ومن سخرية فينوس بأبولون مواقف تنزل عن مرتبتهما. أما ما عدا ذلك فقد بلغ فيه الحكيم مرتبة الإبداع في إدارة الحوار، وفي إبراز فكرته شيئاً فشيئاً.

وفكرة الحكيم هي تصوير الحيرة التي تلازم الفنان، والقلق الذي يساوره فلا يهدأ، لأن أنظاره يتبع الأفق كلما امتد، فهو لا يرضى بما هو فيه، لأنه يطلب ما هو أسمى، فإذا ارتفع الى هذا وجد رغبته أسمى منه... وقد بدأ الحكيم مسرحيته دون أن يكشف الستار عن الفتاة التي أوحت الى «بجماليون» صنع تمثاله، ولكنه أعلمنا على أنه ابتدع تمثالاً، وأن الناس يتحدثون عن غرام هذا الفنان بما صنعت يداه. ثم نرى أبولون وفينوس معجبين بما صنعت يد هذا الإنسان الفاني، ونسمع أبولون يقول: «هؤلاء البشر يا فينوس يمتازون عنا نحن الآلهة هذا الامتياز: في طاقتهم أحياناً أن يصعدوا حتى أنفسهم. أما نحن فلا نستطيع أن نصعد حتى أنفسنا... [illegible] أو ما يكون الخلق عند هؤلاء نادرة أحياناً أن توجد عبقرية [illegible] في إمكاننا نحن الآلهة أن نأتي بمثلها أو نجاريهم [illegible] لأنهم أسرى [illegible] ونحن [illegible] في الأولمبس.»

ثم نسمع بعد ذلك في [illegible] بجماليون الى «فينوس» أن تنفخ في تمثاله الحياة. وما يلبث أن نراه مشدوداً أمام تمثاله وهو يسمع

تهشده ويسمع بدائه إياه حين أجابت الآلهة أمنيته . ثم نرى الحياة قد بثت في العاج طابعها الدنيوية ، فتهرب تلك المتاقمع في الفنان ثم تعود اليه وقد عرفت مكانته من السمو، وعرفت شيئاً عن حقيقة نفسها . ولكن الفنان المتطلع الحائر لا يرضى عما كان يتمنى أن يتحقق له، فهو يرى ان الجمال الذي ابتدعة قد شوهته الآلهة بالحياة التي بعثتها فيه ، فجعلت منه حقيقة مدركة لا تفترق في شيء عن حقائق الوجود ، تسري عليها طبائع الحياة وقوانينها ، تعمل ما يعمل الناس ، وتسير الى الفناء كما يسير كل مخلوق ، فينقم على الآلهة صنعها ، ويصرخ بهم أن يردّوا اليه حلمه ويأخذوا حلمهم . يردوا اليه فنه . يردوه اليه تمثالاً من العاج كما كان ...

فاذا أجابت الآلهة نداءه أحسّ بعد ذلك الألم ، وأحسّ الوحدة والفراغ ، وعادت طبيعته القلقة الى ثورتها ونضالها . واذا هو يرى هذا التمثال البارد الجامد قد فقد أمامه جماله الذي كان فيه ... لقد كان هذا الفنان يقدّس الفنّ ويراه أنبل من الحياة ، فما هو ذا يراها الآن أنبل من الفن . واذا هو يعود الى الأماكن التي اجتمع فيها بجالاتيا تمثاله عندما كانت الحياة تسري فيها ، يتنسم عبير الذكرى ولذة الحلم الضائع ، فلا يجد ما يملأ فراغ نفسه . واذا هو أمام الوحدة القاسية ، وأمام الفراغ المفزع يهوي على تمثاله يحطّمه . وعندها ينتهي صراعة مع الفن لاستلاب مفتاحه وامتلاك المطلوب ، وصراعه مع ملكاته وغرائزه ، وصراعه مع المصائر والاقدار ، ثم ينتهي صراعه مع الحياة فتفلت من جسده

***

هذه هي مسرحية توفيق الحكيم ، وهذه هي فكرته واتجاهها . وجمال هذه الفكرة منبث في حوارها ، وفيها أبدع توفيق الحكيم من فنه

أما مسرحية خليل هنداوي فهي تدور بنا بحدود الفنان من راحة في الوهم لا يستطيع ان يناها في صوره الحقيقة . وقد جرى فيها هنداوي على نحو آخر جعلها قريبة من بدء تاريخ الأسطورة ، فما هي ذي «جالاتيا» تلك الفتاة المائتة

التي صنع « بجماليون » تمثالاً لها فأبدع صنعه ، وقد دعاها لتشهد حفلة إزاحة الستار عن تمثالها . وتسمع من حوارهما معاً . انه يعلن لها انه قد سلخ من جسدها جسداً آخر أتقنه الفن ، وان هذا الجسد سيبقى له كلما شاء رآه . فتجيبه بأن هذا الجسد ترجمة مشوهة عنها ، لأنه لا ينطوي على ما تنطوي عليه أعماق نفسها ، فيرد عليها قائلا : « إنه ليس بالجسد المجرد كما تزعمين . إن التماثيل لتحيا حياة أعمق من حياتنا ، ان الغرض الذي يضعه الفنان على فم التمثال ليبقى معبراً عن نفسه للطبيعة ما ظل قائماً إزاءها . إن « ڤينوس » المخلوقة من لحم ودم غدت رفاتاً سحيقة ، أما ڤينوس الرخامية فهي تتكلم كل يوم ، وتبعث من جمالها بهجة كل يوم ... من هو الفنان الذي لا تحيا في رأسه ڤينوس الحجرية ؟ » . . . ثم تخرج « جالاتيا » بعد أن تيأس من رد الفنان عن هوى تمثالها ، وتتركه لوحده

وفي المشهد الثاني نرى « جالاتيا » مع صديق لبيجماليون تتحدث معه عما حل بصديقه الفنان الذي جذبه الفن ، فيجيبها بأن ليس في الانجذاب من عار عليه . ولكنها ترد عليه بأن هذا الانجذاب جملة ينكر حقائقنا ، ويفلت من حياتنا ، ويفر من أيدينا . ثم تطلب اليه أن يسعى الى إنقاذ صديقه مما هو فيه ، وانها ترى أن لا بد من تحطيم التمثال ، فينهاها عن ذلك لأن نتيجته جنون « بيجماليون » ، ويرى أن هناك حيلة للإنقاذ تفتق عنها ذهنه ، هي أن « التمثال يجب ان يبقى ، ويجب ان نوهمه بأنه يتحرك ، وأنه يحيا ، والحياة وحدها تطلقه من أوهامه » ... فتنزل نزعة على رأيه

وفي المشهد الثالث يأخذها هذا الصديق الى دار « بيجماليون » ليعمل على ما فيه إنقاذه ، فيجدانه محتضناً تمثاله ، وقد أخذت عيناه ، فيشير عليها الصديق أن تسل فتختبئ وراء التمثال ثم تجيب على الفنان عند ما يناجي التمثال حتى يحس ان الحياة قد انبعثت في التمثال كما . . . . فتستعد « جالاتيا » لذلك . وعند ما يفيق المثال من غشيته ويأخذ في مناجاة تمثاله . ترد هي عليه نجواه ، فتستولي عليه الدهشة

ونسمع الحوار الجميل الذي يديره خليل هنداوي بين شخصيتيه ، ونسمع « جالاتيا » تقول له وقد علمت مدى افتتانه بتمثاله ، ومدى إيثاره إياه عليها وهي الأصل فيه : « أخاف ان تثور الغيرة في صدر غادتك » فيجيب « تلك لا أعرفها » فتقول له : « ولكن اذا حييت هل تستطيع ان تفرّق ما بيننا اذا اجتمعنا معاً . ألسنا هي أنا ، وأنا هي ؟ »

وعند ذلك يخرّ صعقاً ، فيسرع صديقه الى التمثال فينتزعه من مكانه ، ويشير الى « جالاتيا » أن تقف حيث كان التمثال : فتقف وتهتف بالتمثال : « بيجماليون ! أنا ابنة عبقريتك ، إني أحبك . . . تعالَ اليّ . لقد كبّي الرخام لحماً » واستحال الجمال الصامت جمالاً ناطقاً » فيتقدم اليها مدفوعاً بالوهم الساحر وعلاوة انتصار فكرته . وفي سكرته ونشوته يهتف : « لن أرى لجالاتيا إلاّ وجهاً واحداً » . فيردّ عليه : « ولن تراني إلاّ واحدة » ويلتفت صديقه اليها فينبئها قائلاً : « لقد أرسلتُ التمثال الى منزلي . إياكِ ان تقصي عليه قصة ذلك . يجب ان يبقى في وهمه الذي لا يحيا بدونه . قد يكون هذا الوهم كل ما له في الحياة . إنك كنت وهمه . والفنان لا يحيا إلاّ في الأوهام » .

* * *

وهذه هي مسرحية خليل هنداوي ، وهذه هي فكرته أيضاً . وجاءتا كذلك في [illegible] حوارها . . . ولقد رأينا من هذا العرض وجوه الاختلاف في اتجاه كل منهما ، ومدى قرب أحدهما أو بعده عن ظلال الأسطورة ، وما وفّق اليه كل منهما في عرض فكرته ، وفي إبرازها بصورة ساحرة . ونرى في هذه الأسطورة [illegible] تجدد [illegible] كل [illegible] وتجدد [illegible] وإن [illegible] أفقها [illegible] [illegible] الوجود [illegible] عبقري [illegible]